مهمة الإرشاد، واللين في المعاملة

سؤال: ما العلاقةُ بين مهمّة الإرشاد واللين في المعاملة في ضوء قول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ١٥٩/٣)؟

الجواب: نزلت هذه الآية الكريمة بمناسبة معركة أحد، وكما هو معلوم؛ فقد تعرض المسلمون لهزيمة مؤقتة في هذه المعركة، إلا أنَّ تلك الهزيمة النسبية الجزئية التي حدثت تُوِّجَت في نهاية المطاف بالنصر(٤٧).

ولْنُورِد بدايةً شرحًا موجزًا لمعنى تلك الآية الكريمة؛ حيث استُهلّت بقوله تعالى "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ"، وإذا كان حرف الجر "الباء" الوارد في لفظ "فَبِمَا" يفيد المصاحبة يكون المعنى: "لقد لنتَ لهم وعاملتَهم برفقٍ بفضل رحمة الله وعنايته ورعايته وكلاءته"؛ فبيّن الله تعالى هنا أوّلًا أنَّ النبي الأكرم ﷺ محفوفٌ بعنايةٍ ورعايةٍ إلَهيّةٍ

(٤٧) لمّا انصرف المشركون عن أحد وبلغوا "الرَّوحاء" ندموا على انصرافهم قبل أن يستأصلوا المسلمين وقالوا فيما بينهم: "لا محمدًا قتلتموه، ولا الكواعبَ أردفتم، وبئس ما صنعتم، ارجعوا!" فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فندب الناسَ وأمر بلالًا أن ينادي: "إن رسول الله يأمركم بطلب عدوكم، ولا يخرجنّ معنا إلا مَن شهد القتالَ بالأمس!" فخرجوا والجراحُ فيهم فاشيةٌ، فبعضهم خرج وهو يزحف، وبعضهم يحمل بعضًا، وخرج رسول الله ﷺ وهو مجروح، في وجهه أثر الحلقتين، ومشجوجٌ في جبهته في أصول الشعر، ورباعيته قد شظيت، وشفتُه قد كُلمت من باطنها، وهو متوهن منكبه الأيمن بضربة ابن قميئة، وركبتاه مجحوشتان، حتى بلغوا "حمراء الأسد" وبئرَ أبي عنبة، وقد انصرف أبو سفيان وأصحابُه خائفين وجلين، فبذلك حوَّل رسولُ الله ﷺ الهزيمة المؤقتة التي تعرضوا لها إلى نصر عزيز. (انظر: الواقدي: **المغازي**، ٣٣٤/١-٣٣٦)

خاصّـةٍ، فدفـعَ من الأذهان منذ البداية احتماليّةَ أن يكون ﷺ قد وقـعَ في أيّ تقصيرٍ.

ومن المفيدِ هنا اسـتحضارُ مخاطبةِ الحقّ تعالى لكلٍّ من: سـيدنا موسـى وسـيدنا هارون ﷺ بشأن الإرشـاد، كي يتسـنى فهم وإدراك الوضـع والميزة السامية لرسولنا الأكرم ﷺ في هذا الموضوع؛ فبينما أمَرَ الله ﷻ باللينِ سـيدَنا موسـى وهارون ﷺ إذ أرسلهما إلى فرعون قائلًا: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾ (سورة طٰهٰ: ٢٠/٤٤)؛ ذكَّرَ بقوله "لِنْتَ لَهُمْ" أنَّ مفخرة الإنسانية ﷺ على خُلقٍ سامٍ كهذا أصلًا.

وبعـد أنْ أفصـح الله ﷻ عمـا يتحلَّى بـه سـلطانُ الأنبياء ﷺ من خُلـق قرآنيّ قال: "وَلَوْ كُنْـتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ"؛ فلفـت بذلـك الانتباه إلى صنوف الجمال والحسـن التـي أدت إليها أخلاقه الرفيعة السامية ﷺ، ثم أمره أمرًا إثر آخر بألّا يترك العفوَ عنهم والاسـتغفارَ لهم ومشـاورتَهم في الأمر فقـال تعالى: "فَاعْـفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ".

إكسيرٌ حوّلَ الهزيمة إلى نصرٍ

عقـد النبيُّ ﷺ مـع أصحابه مجلِسًـا للشـورى قبـل الخروجِ إلى معركة أُحد، وقد أخذَ برأيهم إيمانًا منه بضرورة ترسيخ مبدإ الشورى عند الجميـع، غير أنهم تعرضوا لهزيمة مؤقتة كبَّدتهم خسائر فادحة، ودفعًـا لمـا قـد يقـعُ في نفسِ الرسـول ﷺ من انكسـارٍ وحـزن تجاه أصحابـه وجَّـهَ الله تعالـى نبيَّـهُ إلى التحلِّـي بأخلاقِ الصفـح والعفو والمسـامحة، وأن يتوجَّه إلى الله بالاسـتغفار لهم، وألا يستنكفَ عن مشاورتهم مجدَّدًا.

وبينما كان المشركون قافلين في طريق عودتهم إلى مكة متبخترين مَزْهُوّين بالنصر جَمعَ رسول الله ﷺ أصحابه، وعرض عليهم تعقُّبَ المشركين، فنزلوا هم أيضًا على هذا الرأي الذي رآه رسول الله ﷺ، ولم يتخلَّفْ عنه أحدٌ ممن شارك في موقعة أُحُدٍ... وبإمعانِ النظرِ في هذا المشهد وتأمُّلِ ما فيه يتسنّى لنا أن نُدرِكَ مدى تأثيرِ المشورةِ في الوصول إلى نتيجةٍ طيبةٍ؛ لأنَّ سادتنا الصحابةَ الكرام رأوا كيف أنَّ إصرارهم -وإن كان بسيطًا- على رأيهم في المشورة التي أجراها رسول الله معهم قبل أُحدٍ تسبَّبَ في وقوع المصيبة؛ وعليه فإن جميعَ من حضرَ أُحُدًا من الصحابة بمن فيهم الجرحى الذين لا يقدرونَ على المشي جاؤوا وقد حُمِلَ بعضهم على الأكتافِ، وطاردوا المشركين حتى موقع حمراء الأسد، فما لبثوا أن تحوَّلوا من وضعيّة المنهزم إلى وضعيّة المنتصر.

وهذا يعني أنه ينبغي لنا ألا نتخلَّى عن أسلوب اللِّين حالًا وقالًا إنْ كنَّا نريد أن نصبح مركزَ جذبٍ في نظرِ المخاطبين؛ لأن الفظاظة والغِلظة في التعامل والتصرُّف مع الناس تجعلهم ينفضُّون من حولنا وينفرون منّا كما بيَّنَت تلك الآية الكريمة.

أما القسوة والغلظة فتتعدَّدُ أنواعُها وتتباين؛ فكما أنَّ تفوُّهَ خَطيبٍ بكلماتٍ بذيئةٍ ووقحةٍ، ومخاطبتَه الناس بقسوة وشدة، وإفراطَه في رفع صوته تعبيرٌ عن الغلظة؛ فإن انتقادَ الناس انتقادًا موجعًا أو التولي والإعراض عن أحدهم نموذجٌ آخر من نماذج القسوة والغلظة، وكلّها سلوكيات وتصرفات تُنفِّرُ الناسَ وتُبعدهم عمَّن يُخَاطِبُهم.

إن الأخلاق الإلهية لهي الأساس في هذا الصدد، والأنبياء العظام هم مَنْ يمثلونها، فما دام الحق ﷻ يأمرُ سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام باتباع الليـن والرفـق حتى عندمـا يخاطبان فرعـون الذي يدعي الربوبية، ويُثني على سيدِنا رسولِ الله ﷺ ويَمدَحه بسبب تصرفه اللَّيِّنِ وبيانه الرقيقِ؛ فذلك يعني أنَّ هذا هو المبدأ الإلهي الأساسُ الواجب اتباعه في كل زمان ومكان، وعليه فإن المؤمنين مطالَبون بأن يعاملوا الناس من حولهم بلينٍ ورفقٍ مهما يلاقون منهم.

حدُّ اللين عدمُ التفريط في حقوق الله

ومـع هـذا فـإن اتخـاذ موقـفٍ ضـدَّ المتمرِّديـن العصـاة الذين لا ينتصحـون، بـل يُصِـرّون على تكـرار الخطإ والتقصيـر دائمًا دون خجـل ولا اسـتحياء منهـم هو تعبيـرٌ عن إعـلاء حـقِّ الله وتعظيمه، وزيـادةً فـي الإيضاح نقول: ينبغي علينا تجاه أولئك الذين يتكسَّـبون دون مراعـاة للحـلالِ ولا للحرامِ ويعيشـون حياة إباحيّـة مضرّةً لهم ولغيرهم؛ أنْ نُحذِّرَهم بأسـلوبٍ لَيِّنٍ وهَادِئٍ، فإن لم يتعَقّلوا وينتهوا عمـا يفعلون وجب اتِّخاذُ موقفٍ واضح تجاههم، وكما هو معروف فإن قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُـهُمْ وَظَنُّـوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ (سورة التَّوْبَة: ١١٨/٩) نزل في الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك؛ فثمة امتحانٌ في هذا، والحقيقة أنَّ رحـى الحـرب لم تَدُرْ في غـزوة تبوك رحمةً مـن الله تعالى، ولو أنها دارت لكان هؤلاء الثلاثة قد وقعوا في ذنبٍ أعظم بقعودهم عن المشـاركة فـي الحرب، ولهذا السـبب فقد أخبـر الله تعالى بعد تلك

الواقعة بخمسين يومًا أنه عفا عنهم رحمة منه بهم، لكنَّ هذه الأيامَ الخمسين ما عاشوها إلا في عزلةٍ فريدة، امتنعَ النبيُّ فيها عن الكلامِ معهم، ومنعَ جميع الصحابة من تكليمهم؛ لأنهم لم يشاركوا في حملة جُهّزت في سبيل الله، وفي تلك الفترة أيضًا لم يكن المنافقون يشاركون في الحرب، ولذلك فإن من تخلَّفَ من المؤمنين فقد أدخل نفسَه ضمن هذه الفئة مؤقّتًا؛ فاتُّخذ ذلك الموقف تجاههم لأنهم دَنَّسوا فلكهم، فكانت المقاطعة الجماعيّة من قِبلِ المجتمع تعبيرًا عن تعظيم حقوق الله ومراعاتها.

وإلا فإن اللين والرفق هما أساس أخلاق المؤمن، ومَنْ يتمثَّلون اللين والرفقَ في أقوالهم وتصرّفاتهم وسلوكياتهم يجذبون الناس إليهم، وإن كان ثمة إنسانٌ جديرٌ بقدرٍ معينٍ من التقدير والالتفات بالنظر إلى منزلته الاجتماعية فيلزم ألا يُبخَس حقَّه في نيل ما يستحق من الاهتمام، ولا ريب أن العلاقة التي تُؤسَّس مع الآخرين ستختلف من شخص إلى آخر، غير أنه لا بدَّ لكلِّ فردٍ أنْ يأخذ نصيبه من تقديركم وعنايتكم بحسب خصوصيَّة الطريق الذي يسير عليه، ولا بدَّ من إقامة العلاقات والتواصل مع الجميع بدءًا بالمؤمن المهموم على أمّته، ومرورًا بالمؤمنِ العادي، وانتهاءً بمن يتحرك في اتجاه مختلفٍ عنكم.

السبيلُ الوحيد لإقامة جسور المودة

لا بد من الوصول إلى كل الناس في المجتمع، وفتحِ الصدور للجميع باستخدام سبلٍ ومناهج مختلفة؛ فهذا هو المقصدُ الأصلي من "الحوار"، والسبيلُ إلى التواصل مع الناس يتأتَّى من اللطافةِ

في التعامل واللينِ في السلوكِ حالًا وقالًا، ويستحيل عليكم التعبير عن أفكاركم بشكل كاملٍ وتامٍّ إنْ لم تحققوا ذلك، فإن كنتم ترغبون في أن يستفيد الناس مما تقولون استفادة تامةً أو جزئيّة؛ فيميلوا إليكم وينجذبوا لكم أو لا يكونوا ضدّكم ويتصدوا على الأقل لمن يتحركون ضدَّكم فعليكم أن تتحركوا بلين ورفق تجاههم فتُقيموا جسور الودّ واللينِ معهم، وتضمنوا بذلك أن يعرفوكم بشكل صحيح.

وإن كنتم تريدون إعلاء كلمة الله، وإيصال الرسالة المحمدية الجليلة إلى الجميع، وإبراز صورة الإسلام البهية ووجهه الطاهر النقيّ تصدّيًا لمحاولة البعض تشويهه، وإفراغَ العصارة الذكية المنسابة من جذوركم الروحية والمعنوية في صدور الآخرين؛ فعليكم أن تفتحوا صدوركم للجميع وتحتضنوهم دون تمييز بينهم على الإطلاق، بل وحتى عليكم -إذا لزم الأمر- أن تضعوا رؤوسكم تحت أقدام الآخرين كأحجار الرصيف كي تفرغوا مشاعركم وأحاسيسكم في أرواح الناس وتبثّوها فيها، ولا تظنّوا أنَّ هذا الأمر عظيم، بل إنّه ليسَ شيئًا يُذكر؛ لأن الأمرَ هنا مرتبطٌ برضوان الله وحقِّه، وبرضا مفخرة الإنسانية، وفيه مراعاةٌ لِخاطرِ مَنْ يعيشون الإسلامَ الدين المبين ويطبقونه ويحملون رسالته إلى كل أنحاء الدنيا.

وَعَوْدًا منَّا على ذِي بدءٍ نقول: إن رسولنا ﷺ أظهر بأقواله وأفعاله وتصرفاته وسلوكياته طيلة حياته أنه رحمة مجسمة تسير على الأرض؛ فكان هكذا حقًّا كما بَيّنَت الآية الكريمة: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: ٢١/١٠٧) ويمكن مطالعة مظاهر هذه الرحمة ورؤيتها في عديد من فصول ولقطات حياته ﷺ،

ومن ذلك على سبيل المثال أنَّه ﷺ عندما دخل مكة قال لأولئك الذين ما تركوا شوكةً إلا ووضعوها في طريقه، ولا محاولةً إلا وبذلوها في سبيلِ إيذائِه، بل وأرادوا منعه من دخول مكة -قال لهم- مثلما قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (سورة يُوسُفَ: ٩٢/١٢)، "اِذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ"، فأرانا بهذا القمَّةَ في اللين والصفح والرحمة والتسامح(٤٨).

رحمةٌ مجسَّمة تسير على الأرض

لقد أصبح مردودُ هذا اللين والرفق الذي أبداه سيد الأنبياء رسولنا ﷺ عظيمًا؛ إذ دخل الناس في الإسلام أفواجًا وجماعاتٍ كما ذُكر في سورة النصر، وإذا نظرنا إلى المسألة من زاوية تكرر الأحداث التاريخية في دوران دائمٍ يمكننا القول إنه: أيًّا كانت العوامل التي أثرت في دخول الناس الإسلام بالأمس فإنها ستظل تؤثر في اعتناقه اليوم وغدًا، وكما قال الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي: "لو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارمَ أخلاق الإسلام وكمالَ حقائق الإيمان، لدخلَ أتباعُ الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجًا، بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام"(٤٩).

أجل، إن تجسيدَ الرحمةِ على وجه "الأصالةِ" حاصلٌ برسولِنا ﷺ، ولا قِبلَ لأحدٍ على الإطلاق أن يُزاحمه في هذا المقام، غير أنه ينبغي للأعين أنْ تطمحَ إلى هذا الأفق دائمًا؛ ولا بد من السعي إلى تحصيله على مستوى "الظليّة"، وحريٌّ بنا أنْ ندعوَ الله ﷻ أنْ يجعلنا

(٤٨) انظر: البيهقي: **السنن الكبرى**، ١٩٩/٩.

(٤٩) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: **صيقل الإسلام**، الخطبة الشامية، ص ٤٦٢.

رحماء مشفقين؛ إذ يُمثّلُ هذا في الوقت نفسه سببًا ووسيلةً مهمة لأنْ تنزل بنا رحمته ﷻ، ولقد قال رسول الله ﷺ: "**مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ، لَا يَرْحَمْهُ اللهُ** ﷻ"(٥٠)، وقال في حديث آخر أيضًا: "**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَانُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**"(٥١).

ومن هذه الناحية فإنه ينبغي لفدائيّي المحبّة في عصرِنا أنْ يَتُوقُوا للوصول إلى أفق تجسيد الرحمة، وأنْ يسيروا في سبيل إدراك هذا دائمًا، وأيًّا كانت النقطة التي ستحملهم إليها ملكاتُهم؛ فلسوف يُرافِقُون في الآخرةِ الإنسانَ الأُفُقَ في هذا الطريق الذي يسلكونه، وهو رسولُنا ﷺ، وسيكونون في معيته ما داموا يسيرون في إثر هدفٍ كهذا.

(٥٠) **صحيح مسلم**، الفضائل، ٦٦؛ **سنن الترمذي**، البر، ١٦.

(٥١) **سنن الترمذي**، البر والصلة، ١٦؛ **سنن أبي داود**، الأدب، ٦٦.

openkandl.com